لعنة الدم (القطار)

وصل أسامة إلى محطة القطار متأخرًا قليلًا.. وكاد القطار يتحرك بدونه، ولكن لحسن حظه حدث ما لم يكن يتوقعه أحد: قطيع من الكلاب يقف على القضبان ويمنع تقدم القطار.

وما إن وصل أسامة وصعد إلى القطار، حتى تحرك أكبرهم حجمًا والذي كان أقرب للذئب منه إلى الكلب، وكأنها كانت الإشارة التي تحرك بعدها باقي القطيع، نظر أسامة من النافذة إلى الكلاب، والذين كان عددهم اثني عشر كلبًا وقائدهم (١٣)، وبرغم تذمر ركاب القطار من تلك العطلة التي تسببوا بها، كم ود هو حقًّا لو يستطيع شكرهم! فلولا وجودهم لتحرك القطار مغادرًا بدونه.

لوهلة التقت عيناه بعيني قائد القطيع، أو ربما خيل إليه ذلك.. شعر أن ذلك الكلب يرمقه بنظرة ثاقبة تحمل الكثير من الشراسة والغضب، وما إن تلاقت نظراتهم حتى انطلق مثل السهم مغادرًا المكان، ومن خلفه باقي القطيع وسط دهشة الجميع.

شعر أسامة برهبة شديدة، فقد ظلت تلك النظرة عالقة بذهنه ولم تفارقه، كما أنه يتساءل بينه وبين نفسه: أين؟ ومتى رأى تلك العينين من قبل؟

وها هو يتحرك القطار مغادرًا.

تنهد أسامة تنهيدة طويلة قبل أن يعود إلى الخلف بمقعده مسترخيًا وممنيًا نفسه بوقت طيب يقضيه مع إخوته وأصدقائه ببلدته، نعم هو يحتاج لذلك بشدة، بعد كل ما مر به من أحداث تبدو غريبة على نمط حياته، وهو الذي ولد ونشأ وعاش ثلثي عمره بالصعيد، قبل نزوحه واستقراره بالقاهرة للعمل بشركة المقاولات، التي يمتلكها أحد كبار رجال الأعمال براتب مجزي لإعجاب صاحب الشركة بعلمة وأخلاقه، حتى إنه وافق على ارتباطه بابنته الوحيدة.

كل شيء كان يبدو طبيعيًّا وروتينيًّا حتى ذلك اليوم الذي قصده فيه صديقه سمير للذهاب معه إلى ذلك العراف، الذي يتحدث عنه الجميع بأنه يقرأ الماضي والحاضر ويتنبأ بالمستقبل.

عبثًا حاول أسامة إقناع سمير، بأن هؤلاء ليسوا سوى دجالين ومشعوذين يستغلون جهل الناس للاستيلاء على أموالهم دون جدوى.. على مضض وافق أسامة بالذهاب معه، خاصة أن (سمير) هو صديقه المقرب، كما أن والد سمير كان أيضًا صديق والده المقرب، وكلاهما اختفيا بظروف غامضة دون العثور على جثثهما أو اكتشاف منفذ الجريمة.

وكالعادة انتشرت الخرافات وتناقلت الألسن الكثير من القصص والروايات عن اختفائهما المفاجئ.

يكاد يكون سمير هو صديقه الأوحد منذ حضوره إلى القاهرة، يتقاسمان الغربة سويًّا.

وبينما هو بطريقه إلى سمير، إذ وجد رجلًا كهلًا ممن يطلقون عليهم لقب دراويش؛ حيث جلبابه الواسع المطرز بالدلايات، وبعض الخرز الملون مع عمامة خضراء كبيرة، وعصا مقوسة بآخرها جزء معدني يشبه الصولجان.

ببادئ الأمر وجد الرجل يرمقه بنظرات حادة وبها بعض الترصد والتنمر، اقترب منه محاولًا وضع بعض النقود بيده، ولكن حدث شيء لم يخطر على باله أبدًا، فقد رد الرجل يده بقسوة وقوة، وهو ينظر بعينيه نظرة مباشرة، وهو يردد بصوت عميق بدا وكأنه يأتي من بئر عميق وسحيق: "عندما تعود الأمانة يعود الأمان والجميع سيدفع الثمن". ردد الدرويش هذه العبارة أكثر من مرة وهو يغادر مبتعدًا.. أثار تصرفه دهشة أسامة، والذي رجح بينه وبين نفسه أنه بلا شك أحد المجاذيب.

وصل أسامة إلى المكان المتفق عليه مع سمير، الذي قابلة بترحاب شديد، وهو يقول مبتسمًا: "أعلم أنك أتيت مرغمًا، ولكني أعدك أننا لن نتأخر هناك".

وبالفعل بعد عدة دقائق وصل الاثنان إلى بناية قديمة عتيقة الطراز، أشار سمير إليها وهو يقول: "ها قد وصلنا".

وأمام باب خشبي وقف الاثنان، وقبل أن تمتد أيديهما للباب، كان قد فتح وحده، دلفا إلى ردهة خافتة الإضاءة؛ حيث يقف رجل قصير دميم الوجه، أشار إليهما باتجاه إحدى الغرف دون أي حديث، بالفعل توجها إلى الغرفة، والتي ما إن دلفا إليها حتى توجسا خيفة، وقد سرت الرعشة بأوصالهما، حيث كان الظلام يلف الغرفة بينما الدخان المنبعث

من أمام الرجل الجالس والذي يتمتم بعبارات غير مفهومة يبعث على الرجفة والقلق.

أشار الرجل إليهما بيده دون أن يرفع رأسه، وهو يقول موجهًا كلامه بلهجة هادئة لسمير: "ستشرق الشمس وينبعث الضوء ويزداد النجم لمعانًا، ومع صرخة الولادة ستكون صرخة الرحيل وسيعم الظلام".

سمير: "ماذا تقصد؟ هل سأصبح مشهورًا؟ هل سيلمع نجمي؟ هل سيتهافت الناس لمشاهدة أفلامي؟ هل سيشار إليّ بالبنان وأصبح فنانًا لامعًا ولي معجبون"؟

الرجل بنبرة صارمة وحادة: "أخرج ولا تعد مرة أخرى"!

قام سمير وهو بحيرة من أمره يتبعه أسامة للمغادرة، لولا ذلك الصوت من ذلك الرجل موجهًا حديثه بغضب وحده، وهو يقول لأسامة: "عندما تعود الأمانة يعود الأمان والجميع سيدفع الثمن".

هنا تسمرت قدما أسامة بالأرض، وهو يحدق بالرجل، والذي لم يكن سوى ذلك الدرويش الذي التقاه وهو بطريقه إلى هنا.

تسمرت قدماه بالأرض، وهو يشعر بالذهول من هول الصدمة والمفاجأة، وكلمات الرجل التي كانت مباغتة لأسامة، حاول أن يتساءل أو يستوضح، لولا صرامة الرجل، وهو يقول: "غادر! وحذار أن تنسى أو تعود قبل أن تعيد الأمانة".

تململ أسامة وهو يجلس على مقعده بالقطار، فقد أعادت له كلمات الدرويش عندما تذكرها خوفًا وقشعريرة سرت بروحه قبل أن تتملك من جسده، نفض أسامة ذلك الخاطر عن ذهنه، فقد كان يشعر بالإرهاق الشديد.. عاد بظهره للوراء ووضع فوطة على وجهة واستسلم لنوم عميق.

ولكن مهلًا ما هذا الذي يراه ويشعر به! ظلام حالك ولهاث متقطع وزمجرة تشق سكون الليل، كل هذا كان كفيلًا بأن يفتح أسامة عينيه ببطء، لينظر حوله بشك وريبة وهو يتوجس خيفة، ولكنه لم يرَ أي شيء: السواد هو كل ما يحيط به، وفجأة لمح أزواجًا كثيرة من العيون الحمراء تنتشر حوله بشكل عشوائي، لم يحتج للكثير من الوقت ليعرف أنها كلاب سوداء بغاية الضخامة، لا يظهر منها سوى احمرار عينيها، وصوت لهاثها المتعاقب وألسنتها التي تتدلى منها، وهي تحدق به بحدة وغضب، بينما تحيط به من كل جانب.

حاول أن يصرخ ويستغيث بلا جدوى، حاول أن ينهض من مقعده أو يتحرك ولكن بلا جدوى، فقط يشعر بالخدر يسري بكامل جسده فلا يستطيع الحركة، حاول حتى تحريك يديه، ولم يستطع، كان وكأنه مكبل اليدين والقدمين.. شيء ما يجثم على صدره.

كانت الكلاب تحيط به من كل جانب على شكل دائرة، وكلما مر الوقت ضاقت الدائرة، حاول أن يحرك لسانه بقراءة بعض ما يحفظ من آيات القرآن الكريم، ولكنه لا يقوى حتى على ذلك بسبب جفاف ريقه، فجأة بدأت الدائرة تتسع من حوله ليقترب منه زعيمهم، لم تكن تظهر منه سوى عينيه واللتين تحولتا إلى بقعتين من الدم الداكن شديد الاحمرار.

كان صوت لهاثه وأنفاسه كفيلين بتوقف قلبه من الخوف والهلع.. اقترب الكلب الضخم، والذي كان يشبه الذئب من أسامة، أخرج لسانه الذي لامس رقبة أسامة والذي كان عاجزًا عن إبداء أي نوع من المقاومة.

شعر بأسنانه تقترب من رقبته، تكاد تنهشها وتمزقها، وشعر بلعابه ذي الرائحة النتنة، يملأ أنفه أغمض عينيه مستسلمًا لمصيره منتظرًا لحظة النهاية، والتي بدت له أنها اقتربت كثيرًا.

شعر بأظافره تقترب من رقبته لتمزق من أسفل أذنيه، وحتى صدره حرك رأسه يمينًا ويسارًا وهو يحاول جاهدًا الصراخ وفتح عينيه.

لم يدرِ إلا وذلك الرجل الجالس قبالته يحاول إيقاظه وتهدئته، وهو يقول: "اهدأ يا بني، يبدو أنك رأيت كابوسًا مزعجًا، فقد كنت تحرك رأسك بعنف دون أي صوت، وكان العرق يتصبب من جبينك وكأنك بسباق".

حتى هذه اللحظة كان أسامة فاقدًا للنطق غير مدرك ما حدث أو يحدث أو ما سيحدث، فقط تلك الرائحة النتنة ما زالت تزكم أنفه، وقشعريرة ما زالت تسري بكامل جسده.

شكر الرجل ونهض متوجهًا إلى الحمام ليغسل وجهه.

كانت تلك الرائحة النتنة ما زالت تسيطر عليه، وكأنها تأتي من داخله وتملأ أنفاسه، وذلك الألم برقبته لا يحتمل، غسل وجهه ورأسه بالماء البارد.

وبينما كان يجفف وجهه إذ شعر بالألم الشديد عندما مرت الفوطة على رقبته، وعندما اقترب من المرآة ليرى مصدر الألم، كاد يفقد الوعي، فقد كانت تلك الخطوط الحمراء الناتجة عن مخالب حادة تمتد من خلف أذنه وحتى صدره تبدو ظاهرة بوضوح شديد.

عاد أسامة إلى مقعده والرعب يملأ كل خلية بجسده ليتملك كل حواسه، حاول أن يظل مستيقظًا، وألا يستسلم للنعاس، فما حدث له أثناء غفوته جعله يشعر بخوف ورعب حقيقي، فهل كان ما حدث وهمًا

وكابوسًا كما قال الرجل الجالس أمامه وهو لم يغادر موقعه! وإن كان كذلك فمن أين أتت تلك الرائحة والعلامات الناتجة من أنياب ومخالب!

دون أن يدري ودون جدوى، وكأنه تحت تأثير مخدر قوي، وجد نفسه مغمض العينين، ويدخل بإغفاءة جديدة؛ ليذهب بدوامة تلتقفه كمن دخل خلاط كبير وكل شيء حوله يدور فلا يعرف موقع رأسه من قدميه.

وما إن توقف الدوران وقف على قدميه يحاول الثبات بصعوبة بالغة، فقد وصل لحد كبير من الإرهاق والإنهاك.

تساءل بينه وبين نفسه بخوف: أين أنا! وما هذا المكان!

لا شيء محدد كل شيء مبهم وغير واضح المعالم.

وفجأة يظهر ذلك الكلب الضخم الذي كان يقود قطيع الكلاب بمحطة القطار، بنفس عينيه اللتين تلمعان بلون الدم الأحمر الداكن.. بهدوء سار الكلب أمامه وكأنه يطلب منه أن يتبعه بصمت وانصياع ودون مقاومة.

تبع أسامة الكلب الذي دخل إلى مكان شبه مهجور، وكأنه طاحونة قديمة أو ما شابه، يعم الظلام أرجاء المكان، ولولا تلك العيون الحمراء التي تلمع بالظلام ما تبين معالم المكان حالك الظلمة.

وبينما يحاول استكشاف المكان، إذ شعر برجفة وجسده يترنح بقوة، فالمكان يهتز بشدة وصوت الرعد مع لمعان البرق وهطول الأمطار جعل الموقف أكثر رعبًا، لم يفِق مما يحدث، حتى تناهى إلى مسامعه أصوات خافتة مع وقع أقدام تقترب منه.

حاول الاختباء، ولكن أين يختبئ! وممن يختبئ!

توارى خلف جدار مهدم، وهو ينصت دون أن يرى، دخل ثلاثة رجال يحملون ثلاثة مصابيح قوية الإضاءة، أحالت ظلام الطاحونة إلى نهار، لم يكن يرى وجوههم بوضوح، ولكن كانت أصواتهم تصل إلى مسامعه، ولكن ما هذا هل ذلك الصوت الذي تناهى إليه هو صوت والده حقًّا.

خرج من مخبئه عندما تأكد أنه فعلًا صوت والده، أخذ يصرخ بأعلى صوت محاولًا لفت انتباه والده ومن معه دون جدوى، فقد كان واضحًا أنه هو فقط من يراهم، وهم لا يرونه أو يشعرون به أو بوجوده بينهم، أخذ يراقبهم وهم يحاولون الحفر بمنتصف المكان بمنتهى النشاط والجدية، وأحدهم يقول بحماس: "بعد الآن لن نصبح من الفقراء، سوف نصبح من الأثرياء".. رد عليه الرجل الآخر: "وهل أنت متأكد أن هذا هو المكان المنشود".

رد عليه بثقة: "نعم! هذا هو المكان الذي حدده العراف، بعد أن قرأ تعويذته من خلال الزئبق الأحمر، ولولا ذلك ما اشترينا هذه الطاحونة الملعونة بكل هذا المال".

سمع والده يقول: "هيا! لا يجب أن نهدر الوقت".

مرت ثلاث ساعات كاملة قبل أن يظهر سرداب عليه باب بعمق الحفرة، تهللت على إثر رؤيته أساريرهم وهم يطلقون الصيحات بحماس، اختلف الثلاثة عمن سينزل أولًا، واتفقوا على نزول والده أولًا، والذي نزل بالفعل، وما هي إلا دقائق حتى خرج بوجه شاحب يشبه وجوه الموتى، دون أن ينطق ببنت شفة، وكأنه قد رأى أشباح الكون بأكمله، وقبل أن يتساءل الآخران عما أصابه، أشار بأصابعه إلى السرداب وقد جحظت عيناه من الرعب، هنا قرر والد سمير ومرافقهم الثالث النزول سويًّا لاستكشاف المقبرة ورؤية ما بداخلها، وبمجرد نزولهم

الذي لم يستغرق سوى ثوانٍ، كان كلاهما يحاول الخروج باستماته، وكأن شياطين الإنس والجن تطاردهم، فوجوههم كانت أقرب إلى وجوه الموتى من شدة شحوبها مع عدم قدرتهم على النطق.

لحظات لم تكن كافية لخروجهم من حالة الرعب والذهول، حتى تناهى إلى مسامعهم صوت أقدام تأتي من الخارج مما أصابهم بالرعب والفزع.

كان أسامة يشاهد ويرى ما يحدث دون أن يجرؤ على التدخل أو حتى الكلام من شدة خوفه وجهله بما رأوه بالأسفل.. وقبل أن يفيق من ذهوله دخل عليهم رجل مسن، ولكنه قوي البنية، يشبه بهاليل القرى ممن يجلسون قرب المساجد ويحضرون الموالد بملابسهم المزركشة والدلايات الكثيرة على صدورهم والعمامة الضخمة على رأسه، وما إن دخل ورآهم حتى قال لهم بصوت غاضب: "ماذا تفعلون هنا؟ سيقتلكم الطمع! سيقتلكم طمعكم"! وأخذ يردد نفس العبارة بغضب شديد: "سيقتلكم الطمع! سيقتلكم الطمع"! وبحركة واحدة ومفاجئة وكأنها متفق عليها ودون أي حديث أو سابق إنذار انقض الثلاثة على البهلول ليحملونه بين أيديهم ويحاولون إلقاءه بالسرداب بعمق الحفرة، وهو يصرخ: "ستلاحقكم لعنة الطمع والدم، وستلاحق أولادكم من بعدكم حتى يتم القصاص"!

حاول أسامة التدخل لإنقاذه من بين أيديهم دون جدوى، فهم لا يرونه ولا يشعرون به، بل وكما يبدو هم لا يشعرون بما يفعلون فكأنما تحولوا إلى (زومبي) وما إن ألقوا به بالحفرة حتى ردموا عليه بالتراب، وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأنهم غير مدركين ما حدث للتو.

لحظات من الرعب والفزع مرت بأسامة غير مصدق ما رآه أمامه، كان الوضع بالنسبة إليه يمثل أسوأ كوابيسه، حاول نبش التراب بيديه لإنقاذ البهلول وإخراجه دون جدوى، وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، وأثناء ذلك وجد خرزة زرقاء ضخمة، يبدو وأنها وقعت من البهلول أثناء إلقائه بالسرداب، عندما كان يحاول الحفر لإنقاذ البهلول، كان أبوه ووالد سمير ومن يرافقهم يحاولون تسوية الأرض بأقدامهم.

وبينما هم يفعلون ذلك، إذ تهاوت الأرض من تحت أقدامهم لتبتلعهم نفس الحفرة بثوانٍ معدودة، ومن ثم تتساوى الأرض وكأن شيئًا لم يحدث.

بينما يراقب أسامة ما يحدث بخوف ووجل تنشق الأرض فجأة، ليخرج البهلول وكأنه قد انبعث من تحت التراب منتفضًا وهو يردد نفس العبارة.

تسمر أسامة بذهول وهو يرى الدرويش يخرج من الحفرة، بينما ذلك الكلب قائد القطيع والذي كان قد نسي أمره في غمرة هذه الأحداث المتلاحقة يبرز فجأة من الركن المظلم، وبحركة دائرية أخذ الكلب يدور بقوة وبسرعة حول البهلول، والذي شاركه نفس الحركة وأصبح الاثنان يدوران بقوة وسرعة، ليلتحما ببعضهما البعض ويصبحا بجسد الكلب والذي نظر إلى أسامة نظرة نارية بعينيه الدمويتين.

الآن فقط أدرك أسامة وتذكر أين رآهما من قبل، وما إن تذكر أنهما نفس عيون ذلك الدرويش العراف، والذي ذهب إليه بصحبة صديقه سمير حتى كاد يفقد وعيه خوفًا وفزعًا، بينما كان الكلب قد أصبح ضخمًا للغاية، فاغرًا فاه والزبد يسيل من بين شفتيه، وقد برزت أنيابه الحادة لتزداد عينيه احمرارًا ودموية وهو ينقض على أسامة بشراسة ناشبًا مخالبه بصدره ووجهه ويلقيه أرضًا، وأنيابه تحاول اختراق رقبته بقوة وعنف.

ـ "أتركني! دعني وشأني! أرجوك لا شأن لي بما حدث". ظل أسامة يردد هذه الكلمات كمن يهذي، والرجل بالكرسي المقابل له يحاول تهدئته دون جدوى.

وما إن أفاق ووجد نفسه بالقطار حتى انتبه لحركة جسده وتوتره، بخوف ووجل قال موجهًا حديثه للرجل، وهو ما زال يلهث: "ماذا حدث؟ ماذا يحدث لي؟ أين أنا؟ هل ما زلنا بالقطار"؟

كانت هذه كلمات أسامة والرجل يخبره أنه لاحظ عليه وهو نائم أنه ينتفض والعرق يتصبب من على وجهه ورقبته، وهو يتحرك بجسده أثناء غفوته بانفعال شديد وبالنهاية ملأت صرخاته المكان حتى استيقظ.

اعتدل أسامة بكرسيه، وأخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، مردداً ما يحفظ من آيات قرآنية حتى استعاد أنفاسه وهدأ قليلًا.

نظر من النافذة يتابع القطار وهو يأكل الطريق ويطويه، أسند رأسه بجوار النافذة محاولًا أن يشغل نفسه بالقراءة بتلك الصحيفة التي يطالعها الرجل، وذهنه مشغول بما يحدث مع أسامة.

تململ الرجل بمقعده محاولًا إخفاء دهشته واستغرابه مما يحدث لأسامة أمامه دون أي تفسير.

أراد أن يشاركه الحديث ربما يستريح له، ويكون هذا بداية الخيط ليتحدث معه أسامة ويشرح له ما يحدث، وجه حديثه لأسامة وهو يقول بنبرة حزينة غلب عليها الأسى: "يا له من حادث مروع للغاية"!

أسامة: "عن أي حادث تتحدث"؟

ـ "ذلك الفنان الشاب الذي ألقى بنفسه من الطابق الحادي عشر، بعد أن أصبح نجمًا شهيرًا يشار إليه بالبنان.. لا أدري فيمَ يفكر هؤلاء الناس! فهم لديهم كل ما يحلم به الآخرون؛ لديهم المال والشهرة والأضواء مسلطة عليهم دومًا".

أثارت كلماته دهشة أسامة، وقد لفت انتباهه حديث الرجل، والذي أيد كلامه بصورة الفنان المنتحر، والذي ما إن رآه أسامة حتى أصيب بالهلع والفزع، فلم يكن ذلك الرجل سوى صديقه المقرب سمير، ألجمته المفاجأة وتساقطت دموعه رغمًا عنه، فها هو صديق طفولته ورفيق دربه يموت، وليته مات موتًا طبيعيًّا، ولكنه مات منتحرًا.

تساقطت دموعه وغلب عليه الحزن، حاول مداراة مشاعره عن الرجل الجالس أمامه، والذي بادره بالسؤال: "هل تعرفه؟ أم أنك أحد معجبيه"؟

وقبل أن يتحدث بأي كلمة، تذكر حديث العراف عندما ذهب إليه سمير بصحبته، ما زالت كلماته تدوي برأسه وعقله عن سطوع نجمه وإشراق شمسه وعن صرخة الولادة، وكيف يأتي الرحيل ومن بعد ذلك يحل الظلام، وها هو قد حل الظلام على حياة صديقه، ورحل بعد أن نال الشهرة وبزغ نجمه كما قال الدرويش.

لا يدري ماذا حدث أو أين ذهب الرجل! حتى إنه لا يشعر بحركة القطار أو اهتزازه، فقط ما يشعر به هو الظلام يحيط به من كل جانب، قبل أن يتحول المكان فجأة إلى حديقة ممتلئة بالنباتات والزهور.

على مد البصر، رأى أمه تأتي من بعيد بملامحها الهادئة وابتسامتها الصافية، ورقتها التي تشبه الملائكة، كانت تتقدم نحوه بابتسامة ساحرة، وهي تقدم له وردة بيضاء، وتقول له بصوت رقيق: "هل عرفتني يا أسامة"؟

- "نعم عرفتك يا أمي، كم اشتقت إليك كثيرًا! ولكن كيف هذا؟ أين نحن؟ وماذا تفعلين هنا"؟
- "لا يهم يا أسامة، لا يهم، ولكن هل تعدني بشيء وتحققه لي".

أسامة بحنو: "وهل عصيت لك أمرًا من قبل".

ـ لا تركب القطار يا أسامة، مهما حدث لا تركب هذا القطار.

ـ "لماذا لا أركب القطار"؟

ـ "عدني بأنك لن تركب القطار مهما حدث يا أسامة".

ـ "حسن يا أمي، كنت أود حقًّا أن ألبي طلبك هذا، ولكنني داخل القطار فعلًا".

الأم وهي تبتعد وصوتها يخفت تدريجيًّا: "عندما كنت صغيرًا صنعت لك حجابًا كما تفعل النسوة بالقرى، به عين زرقاء ليحفظك، والآن أنت رجل ولا حاجة لك به فلتعدها إلى صاحبها، عدني بذلك.. وعدني ألا تركب القطار عدني بأنك لن تركب القطار مهما حدث.. عدني يا أسامة.. عدني أرجووووووك".

أسامة بصوت خائف ومرتجف: "لماذا يا أمي؟ لماذا"؟

ـ "لا تركب القطار، سيحترق القطار ابنه سيحرق القطار لينتقم، وليحصل على خرزة والده الفرعونية، لقد دمر وقتل الجميع لينتقم منهم، ولكنك لست منهم، أنت بريء من دمه أنت بريء من دمه، فلا تركب القطار يا ولدي.. هو يلاحق الخرزة التي تعود لوالده والتي وجدتُّها بالطاحونة أثناء بحثي عن والدك، والتي جعلتها حجابًا لك، فلتعدها له.. فلتعدها له". أخذت تبتعد وما زال صوتها يتردد من بعيد "لا تركب القطار.. لا تركب القطار".

وفجأة وكما بدأ الأمر انتهى.. "أستاذ.. يا أستاذ! يا أستاذ"! أفاق أسامة على صوت النادل بكافتيريا المحطة، وهو يطلب منه الحساب، ويخبره أن القطار الذي سيستقله متوقف برصيف المحطة وسيتحرك بعد قليل.

أسامة: "منذ متى أنا هنا"؟

النادل: "منذ أن أتيت قبل ساعتين لانتظار القطار، وأنت نائم وتهذي أثناء نومك، بل وتصرخ وكأن الجن يطاردك".

أسامة وهو يدفع الحساب: "أشكرك"!

النادل: "هيا لتلحق بالقطار".

أسامة وهو يمزق التذكرة: "لن أسافر اليوم، لن أسافر لم يحن الوقت لسفري".

عندما استيقظ أسامة صباح اليوم التالي كان صوت المذياع مرتفعًا للغاية، وهناك من يهاجم الحكومة ويطالب بإقالة وزير النقل والمواصلات بسبب تعدد حوادث القطارات الأخيرة، وصوت أحد شهود العيان وهو يتحدث عن احتراق العربة السادسة بالقطار، وامتداد الحريق لباقي العربات، وموت الكثيرين بهذا الحريق الضخم، وضع أسامة يده بجيب قميصه، لتصطدم يده بجسم صلب صغير، عندما أخرجه لم يكن سوى تلك الخرزة الزرقاء، والتي عندما نظر إليها بعمق شعر وكأن وجه أمه يبدو مبتسمًا، وبحركة عفوية ابتسم وهو يقول: "شكرًا يا أمي! شكرًا".

للحظات خيل إليه أن صوت أمه يتردد بأذنه "جميعهم دفعوا الثمن، بوقت ما لا بد وأن يدفع أحدهم الثمن، وما عليك إلا أن تعيد الأمانة لتنعم بالأمان، والآن أصبحت تعلم أين وكيف تعيد الأمانة"!

أسامة وكأنه يجيب ذلك الهاتف الذي راوده: "نعم يا أمي! أعلم أين وكيف سأعيدها! ستعود الأمانة يا أمي، أعدك بذلك ستعود من حيث أتت وحيث يرقد صاحبها".